التعريف بالفارابى

(٢٥٩ هـ - ٣٣٩ هـ)

هو أبو محمد بن محمد بن محمد، وهو محمد بن محمد بن نصر، وهو محمد بن محمد بن طرخان، وهو محمد بن أوزلغ بن طرخان، وهو محمد بن طرخان بن أوزلغ.

هذه هى روايات المؤرخين فى نسبه، وأنت ترى أنه لا اتفاق بينهم على تسمية آبائه ولا على ترتيبهم - ولم يعن أحد منهم بالإشارة إلى اسم أمه ولا إلى نسبها.

أما أبوه فيقول ابن أبى أصيبعة: إنه كان قائد جيش، وهو فارسى النسب ولعله كان من صغار القواد الذين لم يحفل التاريخ بتدوين أخبارهم.

واختلف المؤرخون كذلك فى بلده. فابن النديم يقول إنه من الفارياب من أرض خراسان. والبيهقى يقول إنه من فارياب "تركستان" ويقرر ابن أبى أصيبعة أن مدينة "فاراب" من بلا الترك فى أرض خراسان. أما صاعد والقفطى والشهرزورى فيذهبون إلى أنه من الفاراب إحدى مدن الترك فى ما وراء النهر. ويذهب ابن خلكان أيضًا إلى هذا الرأى ويقول: إن فاراب كانت تسمى لعهده أطرار وهى مدينة فوق نهر الشاش قريبًا من بلاساغون.

أما ابن حوقل فيذهب فى كتابه "المسالك والممالك" إلى أن الفارابى ولد فى "وسيج" وهى حصن صغير فى ولاية "فاراب".

ويرى الأستاذ "بارتولد" فى مقاله المنشور بدائرة المعارف الإسلامية أن

مدينة فاراب حديثة النشأة لأنها لا يرد ذكرها عند ابن حوقل أو الأصطخرى اللذين عاشا فى أوائل القرن العاشر الميلادى، وإنما ترد فى كتاب المقدسى الذى عاش فى أواخر القرن المذكور. ولسنا نشاطر الأستاذ باتولد رأيه هذا لأن مدينة فاراب ورد ذكرها أيضًا عند ابن خرداذية المتوفى سنة ٣٠٠ هـ وهو متقدم على ابن حوقل والأصطخرى ينحو نصف قرن من الزمان.

ومهما يكن من شيء فلا نزاع فى أن فاراب مدينة من مدائن الترك فى ما وراء النهر، أما فارياب فمدينة فى كور جوزجان من أرض خراسان.

فإلى أى هذه البلاد المختلفة ينسب الفارابى؟

لا جدال فى أن "الفارابى" نسبة إلى فاراب، ولقبه هذا يخرجه من فارياب لأنه لو كان ينتسب إليها لكان لقبه الفاريابى، وهو يخرجه من خراسان لأنه لم يكن بها مدينة تسمى فاراب.

وسواء أكان من وسيج كما يقول ابن حوقل أم من فاراب فإن الأمر ينتهى إلى شيء واحد لأن وسيج كانت حصنًا من حصون فاراب.

رأيت مما تقدم اختلاف الروايات فى نسب الفارابى، وفى بلده.

ونحن إذا حاولنا أن نقف على نشأته، لا نجد فى كتب التراجم ما يشفى الغليل. وأغلب الظن أن السبب فى هذا بعده عن الحياة العامة التى عنى المؤرخون بتدوين أيامها وأخبار من كان لهم فى حوادثها الهامة نصيب.

وكان من سوء حظ الفارابى أن جاء بعده الرئيس ابن سينا أو الشيخ الرئيس، والق نجمه فى ميدان الفلسفة كما سطع فى سماء السياسة، وأفاض الشيخ الرئيس فى التأليف وصنف كتبًا مطولة اشتملت على مذهب الفارابى

فى الفلسفة وأغنت الناس عن رسائله الموجزة، وألقت على تاريخه ظلالا من النسيان.

وابن أبى أصيبعة له فضل السبق فى الكلام على نشأة الفارابى، ذكر فى ذلك روايتين:

روى اختلاف عن الآمـدى فقال: إن الفارابى كـان فى أول أمره ناطوراً فى بستان بدمشق.

ثم روى رواية أخـرى قال فيـها: "وفى التـاريخ أنه كان فـى أول أمره قاضيًا فلما شعر بالمعارف نبذ ذلك وأقبل بكليته على تعلمها".

وإيراد هاتين الروايتين يكشف عما أحس به ابن أبى أصـيبعة من الحيرة والشك، أو هو على الأقل يشعر بعدم الاطمـئنان إلى القطع بإحدى الروايتين وإيثارها على الأخرى.

وأول ما يطالعنا به التاريخ فى أمر الفارابى يبدأ بدخوله إلى بغداد.

وإذا كنا لا نعرف التـاريخ الذى خرج فيه الفـارابى من بلده ولا التاريخ الذى وصل فيـه إلى مدينة السلام فـإنا نستطيع أن نتلمس ذلك اسـتنباطًا من ثنايا كلام المؤرخين.

فقـد ذكر صاعـد والقفطى "أن الفارابـى دخل العراق واستـوطن بغداد وقرأ بهـا العلم الحكمى على يوحنا بن حـيلان المتوفى بمدينـة السلام فى أيام المقتدر".

ثم قرر أنه كان معاصراً لأبى بشر متى بن يونس.

ويترجم القفطى لأبى بشر فيقول:

متى بن يونس النصرانى المنطقى نزيل بغداد، عالم بالمنطق، شارح له، مكثر وطيء الكلام، قصده التعليم والتفهيم، وعلى كتبه وشروحه اعتماد أهل هذا الشأن فى عصره ومصره وكان ببغداد بعد عشرين وقيب ثلاثين وثلثمائة.

ويروى ابن خلكان أن الفارابى لما دخل بغداد كان بها أبو بشر متى. ونحن نرجح أن ذلك كان قبل سنة عشرين وثلثمائة يدفعنا إلى هذا الرأى ما رواه ابن أبى أصيبعة الذى يقول: "وفى التاريخ أن الفارابى كان يقرأ النحو على أبى بكر بن السراج وكان ابن السراج يقرأ عليه المنطق".

ويروى ابن النديم عن ابن درستويه "أن ابن السراج كان من أحدث غلمان المبرد سنا مع ذكائه وفطنته، وكان المبرد يميل إليه ويقر به ويشرح له ويجتمع معه فى الخلوات والدعوات ويأنس به. قال رأيت ابن السراج يومًا وقد حضر عند الزجاج مسلمًا عليه بعد موت المبرد، فسأل رجل الزجاج فى مسألة، فقال لابن السراج: أجبه يا أبا بكر، فأجابه فأخطأ. فانتهره الزجاج وقال له: والله لو كنت فى منزلى لضربتك لكن المجلس لا يحتمل هذا. وقد كنا نشهد لك بالذكاء والفطنة كأبى الحسن بن رجاء وأنت تخطئ فى مثل هذا. فقال: قد ضربتنى يا أبا اسحق وأدبتنى وأنا تارك ما درست مذ قرأت هذا الكتاب - يعنى كتاب سيبويه - لأنى تشاغلت عنه بالمنطق والموسيقى. والآن أنا أعاود. فعاود وصنف وانتهت إليه الرياسة بعد موت الزجاج".

وقد أيد القفطى هذه الرواية وحكى عن عبد الله المرزبانى: "أن ابن السراج صنف كتابًا فى النحو سماه الأصول انتزعه من أبواب كتاب سيبويه، وجعل أصنافه بالتقاسيم على لفظ المنطقيين فأعجب بهذا اللفظ الفلسفيون وإنما أدخل فيه بلفظ التقاسيم. فأما المعنى فهو كله من كتاب سيبويه".

وإذا كنا قد فقدنا كتاب الأصول فقد استمر الأثر فى تلاميذ ابن السراج، فقد كان تلميذه أبو الحسن على بن عيسى المعروف بالرمانى يمزج كلامه بالمنطق حتى قال أبو على الفارسى: "إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن فليس معنا منه شىء، وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شىء".

ويقدم ابن جنى تلميذ أبى الحسن وأبى على الفارسى لكتابه "والخصائص" فيقول: على أن أبا الحسن كان قد صنف فى شىء من المقاييس كتيبًا، إذا أنت قارنته بكتابنا هذا علمت بهذا إنا نبنا عنه فيه وكفيناه كلفة التعب به وكافأناه على لطيف ما أولانا من علومه المسوقة إلين المفيضة ماء البر والبشاشة علينا.

وكتاب الخصائص بين أيدينا وكل صفحة من صفحاته شاهد ناطق جلى على أن النحو قد تأثر بالمنطق تأثرًا كبيرًا.

لا شك إذن بعد هذا فى أن ابن السراج كان قد اشتغل بالمنطق وتأثر به فى مصنفاته وتأثر به تلاميذ مدرسته من بعده.

والصلة التى كانت بين الفارابى وابن السراج على ما رواه ابن أبى أصيبعة ترجح ما ذهبنا إليه من أن الفارابى دخل بغداد قبل عشرين وثلثمائة، ذلك لأن ابن السراج توفى سنة ستة وثلثمائة وعشر اتفق على ذلك ابن الأثير وابن الأنبارى والقفطى وابن خلكان وأبو المحاسن.

ولو صح ما رواه ابن النديم عن ابن دستويه لكان تشاغل ابن السراج بالمنطق والموسيقى قبل سنة ثلثمائة وعشر أو إحدى عشرة وثلثمائة وهما التاريخان اللذان قيل ن الزجاج توفى فى أحدهما.

Obeikandl.com

وإذا كان ابن السراج يصرح أن تشاغله بالمنطق والموسيقى قد أنساه كتاب سيبويه وعرضه للخطأ فى النحو وقد كان مضرب المثل فيه فلابد أن يكون هذا التشاغل قد استمر طويلا، ونحن نرجح من هذا أن صلة الفارابى بابن السراج كانت سابقة على سنة ثلثمائة وعشر وأن قدومه إلى بغداد كان قبل هذا التاريخ.

ويروى ابن أبى أصيبعة أن سبب قراءة الفارابى للحكمة هو أن رجلا أودع عنده جملة من كتب أرسطاليس فاتفق أن ينظر فيها فوافقت منه قبولا وتحرك إلى قارءتها ولم يزل إلى أن أتقن فهمها وصار فيلسوفًا بالحقيقة. وقد توافق صاعد والقفطى وابن أبى أصيبعة على أن الفارابى قرأ على يوحنا بن حيلان ببغداد وأنه كان معاصراً لأبى بشر متى بن يونس إلا أنه كان دونه فى السن وفوقه فى العلم.

غير أن ابن خلكان يخالفهما فى ذلك ويقرر أنه كان تلميذاً لأبى بشر متى وأنه كان يحضر حلقته فى غمار تلامذته، وظل برهة على ذلك ثم ارتحل إلى مدينة حران وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصرانى فأخذ عنه طرفًا من المنطق أيضًا، ثم أنه قفل راجعًا إلى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطاليس وتمهر فى استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها.

ومما يجعلنا نتردد فى قبول رواية ابن خلكان أن صاعداً والقفطى وابن أبى أصيبعة وهم متقدمون عليه ولم يذكروا أن الفارابى قرأ على أبى بشر متى، بل أن صاعداً والقفطى اللذين يقرران أن كتب أبى بشر متى فى المنطق كانت عمدة الناظرين فى هذا العلم فى عصره قد وازنا أيضًا بين الحكيمين وانتهينا إلى أن الفارابى كان دون أبى بشر فى السن وفوقه فى العلم.

ويحدثنا الفارابى نفسه عن انتقال الفلسفة إلى المسلمين فيقول: أن أساقفة الإسكندية اجتمعت وتشاورت فيما يطلق من تعليم كتب أرسطاليس وما يبطل، فراوا أن يعلم منه كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية ولا يعلم ما بعده لأنهم رأوا أن فى ذلك ضرراً على النصرانية وأن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينه، فبقى الظاهر من التعليم هذا المقدار وما ينظر فيه من الباقى مستوراً إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية وبقى بها زمنًا طويلا إلى أن بقى معلم واحد فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب فكان أحدهما من أهل حران والآخر من أهل مرو. فأما الى من أهل مرو فتعلم منه رجلان أحدهما إبراهيم المروزى والآخر يوحنا بن حيلان، وتعلم من الحرانى إسرائيل الأسقف وقويرى وصارا إلى بغداد، فتشاغل إبراهيم بالدين وأخذ قويرى فى التعليم، وأما يوحنا بن حيلان فإنه تشاغل أيضًا بدينه وانحدر إبراهيم المروزى إلى بغداد وتعلم من المروزى متى بن يونان وكان يتعلم فى ذلك الوقت إلى آخر الأشكال الوجودية.

يقول ابن أبى صبيعة ثم قال أبو النصر الفارابى عن نفسه: "أنه تعلم من يوحنا بن حيلان إلى آخر كتاب البرهان".

ونحن نرى من هذا أن الفارابى عرض لذكر أبى بشر متى ثم صرح بأنه تعلم على يوحنا بن حيلان ولو كان قرأ على متى أيضًا لذكر ذلك كما ذكر أستاذه الأول.

ورواية ابن خلكان تتضمن أيضًا أن الفارابى لما وصل إلى بغداد كان يعرف اللسان التركى وعدة لغات غير العربى فتعلمه وأتقنه غاية الإتقان. وقد

ورد هوار هذه الرواية فى كتابه عن الأدب العربى وأعادها أو ليرى فى كتابه عن "الفكر العربى وكانه من التاريخ" فقال: وفى بعض أسفاره - أى الفارابى - جاء إلى بغداد ولكنه لم يكن يعرف العربية حينذاك. فلم يكن فى مقدوره أن يتصل بالحياة العقلية فيها فبدأ يتعلم اللغة العربية ثم تتلمذ لمتى ابن يونس الحكيم النصرانى.

وليس من السهل أن نسلم بهذه الرواية لأنها لو صحت لكان معناها أن الفارابى سافر من فاراب إلى بغداد وهو يجهل اللسان العربى ثم تعلمه بعد أن جاوز سن الكهولة ثم صنف باللغة العربية ما نيف على المائة من الكتب والرسائل فى أواخر أيامه.

ومما يصعب هذه الرواية أيضًا أنا نجد الفارابى يملك ناصية اللغة مصقول العبارة حسن الأداء، يصوغ المعانى الدقيقة فى أسلوب لين طيع حتى قال بعض علماء المنطق: إنه كان يسلك طريق تفهيم المعانى الجزلة بالألفاظ السهلة. وقال صاعد: إنه شرح الكتب المنطقية وأظهر غامضها وكشف سرها وقرب متناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها فى كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة.

قلنا أن الفارابى كان يملك ناصية اللغة وليس فى أسلوبه ما يدل على قرب عهده بالعربية. وهو وإن كان تركيًا إلا أن عهده بلده بالفتح الإسلامى كان قد مضى عليه أكثر من قرنين عند مولده وفى هذا ما يكفى لاستعراب المقيمين فى فاراب. هذا إلى أن الأتراك قبل مولد الفارابى بقرن كانوا قد اندمجوا فى الامبراطورية العربية وأصبحوا من أهم العوامل فى سياستها. على حرابهم تستند الخلافة ويستقيم الحك ومع ها فقد طغت عليهم لغة

العرب فجذبتهم إليها واستغرقتهم فيها ونبغ منهم الفقهاء والشعراء واللغويون فاتخذوا العربية لغتهم العلمية.

نضرب لذلك مثلا باثنين ممن حضروا عصر الفارابى وولدا فى بلدة فاراب أولهما إسماعيل بن حماد الجوهرى مصنف الصحاح، وثانيهما أبو إبراهيم اسحق ابن إبراهيم الفارابى صاحب ديوان الأدب.

ولم نذهب بعيدًا ونتلمس الشواهد فى غير الفارابى وليس من المعروف أنه صنف بالفارسية أو التركية ولدينا من كلامه ما يدل على أنه يعد العربية لغته العلمية.

يقول فى تحصيل السعادة: وأما معنى الإمام فى لغة العرب قائمًا يدل على من يؤتم به ويتقبل . . " ثم يقول بعد بيان معنى الفيلسوف والرئيس الأول وواضع النواميس والملك: فتبين أن معنى الفيلسوف والرئيس الأول والملك وواضع النواميس والإمام معنى واحد، "وأى لفظ أخذت من هذه الألفاظ ثم أخذت ما يدل عليه عند جمهور أهل لغتنا وجدتها كلها تجتمع فى آخر الأمر فى الدلالة على معنى واحد بعينه".

الظاهر هو أن الفارابى لما نزل بغداد أراد أن يتقن علوم اللغة وهذا أمر كان يطلبه العرب أنفسهم، فدرس النحو على ابن السراج إمام النحويين فى عصره، وتوسع ابن خلكان ومن ذهب مذهبه فى فهم رواية ابن أبى أصيبعة وحملوها على أن الفارابى كان يجهل اللسان العربى، وشتان بين الرغبة فى إتقان علوم اللغة والرغبة فى تعلم اللغة نفسها.

وقد روى ابن خلكان أن الفارابى كان يعرف أكثر من سبعين لسانًا. ومع ما فى هذا من الشطط فإنه لا يخو من أثر الحق، فقد كان الفارابى يعرف

التركية بالضرورة وقد رجح "ده بور" أنه كان يعرف التركية بالضرورة وقد رجح "ده بور" أنه كان يعرف الفارسية أيضًا وقد أتقن العربية وهو يتحدث فى بعض كتبه عن اللغة اليونانية حديث خبير بها. يعرض لنحوها عندما يتكلم عن النحو فى إحصاء العلوم ويبين اشتقاق بعض ألفاظها ومعانيها فى كلامه على لفظ الفلسفة ولفظ سوفسطيقا، وكلما عرض لصوت من الأصوات أو نغمة من النغم ذكر اسمه بالعربية ثم أردفه بمقابله فى اليونانية.

وجملة القول هو أن المعروف عن أساتذة الفارابى أنه درس النحو على أبى بكر بن السراج وطرفًا من المنطق على يوحنا بن حيلان. وإذا استطعنا أن نذهب مذهب المتقدمين فى تعليل تفوقه على علوم الحكمة بأنه توفر على درس كتب أرسطاليس واستخرج معانيها فإن معرفته لكثير من اللغات وبراعته فى الموسيقى العملية والرياضيات وإلمامه بالطب كل ذلك يهيئ لنا أن نفترض أنه كان للفارابى أساتذة آخرون درس عليهم دراسات مختلفة وإن كان التاريخ لم يمهد لنا السبيل لمعرفة أسمائهم.

على أنه يظهر أن الفارابى لم يكن ممن يستقر بهم المقام فى بلد بعينه بل كان ميالا للأسفار محبًا للتنقل لا يكاد يستقر ببلد حتى يرحل عنه إلى غيره. ولا يطمئن إلى موطن حتى يطير عنه إلى سواه.

ويذهب المؤرخون فى رواية أسفاره مذاهب شتى وسبلا متفاوتة. فصاعد والقفطى يذكران أنه دخل العراق واستوطن بغداد ثم قدم على سيف الدولة ابن حمدان إلى حلب وأقام فى كنفه مدة. ثم رحل فى صحبته إلى دمشق فأدركه أجله بها.

على أنه يبدو من كتاب الموسيقى أن فيلسوفًا جاس أيضًا خلال خراسان قبل أن يهبط العراق.

ويروى ابن أبى أصيبعة أن الفارابى انتقل من بغداد إلى الشام وأقام به إلى حين وفاته.

ثم يروى رواية أخرى يذكر فيها أنه نقل من خط بعض المشايخ "أن أبا نصر سافر إلى مصر سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، ورجع إلى دمشق وتوفى بها فى رجب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، عند سيف الدولة بن حمدان فى خلافة الراضى وهذا خطأ تاريخى إذ أن أن الراضى توفى سنة ٣٢٩ هـ. وقد ذكر عند كلامه على كتب الفارابى أنه ابتدأ بتأليف كتاب المدينة الفاضلة ببغداد وحمله إلى الشام فى آخر سنة ثلاثين وثلثمائة، وتممه بدمشق فى سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة، وحرره ثم نظر فى النسخة بعد التحرير فأثبت فيها الأبواب، ثم سأل بعض الناس أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل الفصول بمصر فى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة.

أما ابن خلكان فيروى أن الفارابى رحل من بلده إلى بغداد ثم انتقل منها إلى حران ثم عاد إلى بغداد وأكب فيها على الدرس والتحصيل وألف بها معظم كتبه ثم سافر إلى دمشق ولم يقم بها، ويروى عن كتاب السياسة المدنية ما رواه ابن أبى أصيبعة عن كتاب المدينة المفاضلة.

ولسنا نجد فى الكتابين كما وصلا إلينا ما يشير إلى شيء من هذا. وقد روى البيهقى عنه الشهرزورى أن "الفارابى ذهب إلى الرى استقدمه إليها كافى الكفاة الصاحب بن عباد وبعث إليه هدايا وصلات واستحضره واشتاق إلى ارتباطه وأبو نصر يتعفف وينقبض ولا يقبل منه شيئًا، حتى ضرب الدهر

ضـرباته ووصل أبو نصر إلـى الرى وعليه قـباء وسخ وقـلنسوة بلقـاء ودخل مجلس الصاحب متنكراً وكان المجلس غاصًا بالندامى والظرفاء وأرباب اللهو، فاضافوا الجرم إلى البواب، ورموا إليه أسـهم العتاب، واستهزأيا بى نصر كل من كان فى ذلك المجلس، وهو يحتمى أذى الأيدى ويغضى على قدى الأذى والاستهزاء، حـتى اطمأنت أنفسهم لمجالستـه، وأنساهم الشراب ذكره ودارت الكؤوس وطربت النفوس. وحمل أبو نصر مزهراً واستخرج لحنا مع وزن نوم المستمعين، وصار كل واحـد كالذى يغشى عليه من الموت وكتب على البربط زاركم أبو نصر الفـارابى واستهزأتم به فنومكم ثم خـرج من الرى متنكراً مع رفقة متوجهًا إلى بغداد".

ويروى ابن خلكان قـصة قريبـة من هذه على أنها حدثـت بين الفارابى وسيق الدولة.

ولا شبهة لدينا فى أن قصة البيقهى تمثل خيال الكاتب وفنه دون أن تمت إلى الحقيقة بنسب، ودليلنا على هذا أن الصـاحب إسماعيل بن عباد ولد سنة ست وعشرين وثلثمائة، فهو عند موت الفارابى كان صبيًا صغيراً ولم يكن له بعد مجلس يضم الندامى والظرفاء.

ويرجح "ده بور" أن هجرة الفـارابى من بغداد يرجع سببـها إلى الفتن السياسية. والواقع أن هذا العصر كان عـصر فتن متصلة لا تكاد تخبو واحدة حتى تشب الأخـرى، ومن العسيـر أن نفرق فيه بين الـدين والسياسة. فـقد كانت بغداد تموج بـتيارات من التفكير شـديدة التناقض عنيفة الوسـائل تتخذ سفك الدماء وسيلة من وسائل الاقتناع.

نجد مثلا أن الحنابلة كانوا قد اعتنقوا مخالفيهم واصطنعوا الشدة والعنف

وعظم أمرهم وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القواد والعامة، وإن وجدوا نبى أرافوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة لغناء، واعترضوا فى البيع والشراء. ومشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذى معه من هو فأخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة، فأرهجوا بغداد واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد، وكان إذا مر بهم الشافعى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت.

ونجد من ناحية أخرى أن القرامطة، وهم جماعة من مجوس الديلم أظهروا الإسلام وأضمروا دينهم القديم، لما أحسوا ضعف الخلافة أيام المقتدر جهروا بدعوتهم، وتأولوا أصول الدين على الشرك، واحتالوا لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدى إلى رفع الشريعة، ثم جمعوا جموعهم واستولوا على هجر والإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين، وغزوا البصرة والكوفة. وعاث رئيسهم أبو طاهر سليمان الجنابى فى أرض الجزيرة نهبًا وقتلا إلا من اعتصم منه بالأمان والفدية. واستولى على الأنبار ونهب دور مكة، وانتهك حرمة البيت الحرام، وانتزع الحجر الأسود من مكانه ثم أعاده إليه. واستقل بملك البحرين وما صاقبها.

ففتنة مذهبية من ناحية وفتنة دينية من ناحية أخرى، وإلى جانب هاتين الفتنتين يتمثل التصوف فى شخص الحلاج ويفتتن به أتباعه ويحيطونه بطائفة من الأساطير ويذكرون عنه الأعاجب. حتى خشى المقتدر الفتنة فاحتال على قتله ومثل به أشنع تمثيل.

ونجد من ناحية أخرى فتنًا سياسية متلاحقة كان منشؤها ضعف المقتدر

ومن جاء بعده من الخلفاء حتى طمع الأمراء، فى الأطراف وهاجموا بغداد مرات، وظلت أيام المقتدر والراضى والمكتفى كالأرجوحة تهزها فتن متواصلة ويتلقفها أمير بعد أمير.

والذى نرجحه هو أن الفارابى هاجر من بغداد اتقاء فتنة ابن البريدى الذى فتح بغداد سنة ثلاثين وثلثمائة فثار العامة كما يروى ابن الأثير وأحرقوا ونهبوا وأخذوا الناس ليلا ونهاراً واشتد الغلاء وكان ابن الزبيدى مع ذلك ينهب ويعسف أهل العراق ويظلمهم ظلمًا لم يسمع بمثله قط.

واتجه الفارابى إلى الشام حيث نزل فى رحاب سيف الدولة فى حلب ثم صحبه عندما افتتح دمشق سنة ٣٣٤ هـ وعاش فى كنفه حتى مات فى سنة ٣٣٩ هـ وقد نيف على الثمانين.

وروى ابن خلكان أنه كان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالبًا إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يؤلف هناك كتبه ويتناوبه المشتغلون عليه. وتلك حياة فيلسوف زاهد لم يقتن مالا ولا اتخذ صاحبة ولا ولداً. وكان يستطيع أن يستمتع برغد العيش عندما اتصل بسيف الدولة الذى أجرى عليه رزقًا من بيت المال، ولكنه اقتصر على أربعة دراهم كان يخرجها فيما يحتاج إليه من ضرورى معاشه. وكان مع ذلك عزيز النفس موفور الكرامة لا يخضع لاستقراطية المولد ولا يعبأ بأرستقراطية المال بل يضع فوقهما ارستقراطية العلم ويقرر أن أحرى الناس بالرئاسة هو الفيلسوف الكامل.

وقد روى للفارابى شعر فيه نفحة من أساليب الفلاسفة أحيانًا، وفيه أحيانًا صريخ محب للعزلة سيئ الرأى فى الناس.

ومما روى من شعره:

يا علة الأشـيـاء جـمـعًا والذى كـانت به مـن فـيـضـه المتـفـجـر

رب السـمـوات الطـبـاق ومـركـز فى وسطهن مـن الثـرى والأمـجـر

إنى دعـوتك مـسـتـجـيـراً مـذنبًا فـاغـفـر خطيـئـة مـذنب ومقـصـر

هـذب بفـيـض منك ربا الـكـل من كـدر الطـبيعـة والعناصر عـنصرى

وروى له:

لما رأيت الـزمـان نـكـسـا وليس فـى الصـحبـة انتـفـاع

كـل رئـيـس بـه مـلال وكـل رأس بـه صـداع

لزمت بـيـتـى وصـنـت عـرضًا بـه من الـعـزة اقـتـنـاع

أشـرب مما اقـتـنيت راحًا لهـا على راحـلتى شـعـاع

لـى من قـواريـرها نـدامـى ومن قـراقـيـرها سـمـاع

وأجـتـبى من حـديث قـوم قـد أقـفـرت منهم البـقـاع

وروى له أيضًا:

بزجـاجـتـين قطعت عـمـرى وعليـهـمـا عـولـت أمـرى

فـزجـاجـة مـلئت بحـبـر وزجـاجـة مـلئت بـخـمـر

فـبـذا أدون حكمـتـى وبذا أزيـل هـمـوم صـدرى

وذكر ابن خلكان أنه وجد فى مجموعة أبياتًا منسوبة إلى الفارابى هى:

أخى حـل حـيـز ذى بـاطل وكن لـلحـقـائق فى حـيـز

فـمـا الدار دار مـقـام لـنا ومـا المرء فى الأرض بـالمعـجـز

يـنـافس هـذا لـهــــــذا عـلـى أقـل مـن الـكـلـم المـوجـــــــز
وهل نـحن إلا خـطوط وقـــعن علـى نقطة وقـع مـــســتـوفـــز
مـحـيـط الـسـمـوات أولـى بنا فـــمـــاذا التنافى فى مـــركـــز

وقد شك ابن خلكان فى صحة هـذه الأبيات وذكر أنه رآها فى الخريدة منسوبة إلى محمـد بن عبد الملك الفارقى البغدادى من شـعراء القرن السادس الهجرى.

ونحن نشك فى أن يكون مـعظم هذا الشعر للفـارابى لما فى أسلوبه من تكلف ينبو عنـه أسلوب فيلسوفنا وطبـعه ولما فيـه من تبرم بالحيـاة ونفور من الناس واستهتار بالشراب.

والفارابـى إنما كان يعتـزل الناس ويؤثر الوحـدة حتى يفرغ إلى تـقويم النفس وجعـل شهوتهـا للحق وحده حـتى إذا أحكم تقويمهـا ارتقى منا إلى تقويم غـيرها كمـا ذكر ذلك تبريراً لـتخلى أفلاطون عن كـثير من الأسـباب الدنيوية وإيثاره تجنبهـا. ولم يكن الفارابى ضجراً بالحياة ولا مـتبرمًا بالناس. أما الخمر فما نحبسه كـان يشربها شهوة وتلهيًا. ذلك الرجل الذى كف نفسه عن شهوات الحياة الدنيا ولهوها.

وقـد اتفق مـعظم المؤرخـين على أن الفـارابى توفى بدمـشق سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة. ذكر ذلـك ابن أبى أصيبعة أيضًـا وإن كانت إحدى النسخ الخطيـة من عيون الأنباء تجـعل الوفاة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة. غـير أننا نرجح أن ذلك خطأ من الناسخ.

يقول ابن أبى أصيبعة أن الـفارابى عندما توفى صلى عليه سيف الدولة

فى خمسة عشر رجلا من خاصته. ومعنى هذا أن الأمير الحمدانى كان بدمشق عند وفاة الفارابى. غير أن ابن الأثير يحدثنا أن دمشق لم تكن حينذاك خاضعة لسيف الدولة إذ كان صد صالح كافور الأخشيدى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة على أن تكون دمشق للإخشيد وأن تظل حلب لآل حمدان. وهذه الحقائق تجعل مجالا للشك فى صحة ما رواه ابن أبى أصيبعة.

أما البيهقى فيروى أن الفارابى كان يرتحل من دمشق إلى عسقلان فاستقبله اللصوص فقال لهم: خذوا ما معى من الدواب والأسلحة والثياب وخلوا سبيلى فأبوا ذلك وهموا بقتله فلما صار مضطراً ترجل وحارب حتى قتل مع من معه. ثم وصف البيهقى ما كان لهذه المصيبة من وقع فى أفئدة أمراء الشام فطلبوا اللصوص ودفنوا أبا نصر وصلبوهم على قبره.

ويظهر أن هذه القصة قابلة للمطاعن فإنا نلاحظ أن المسعودى وهو أقرب المؤرخين إلى الصحة فى هذا الموضوع لأنه عاصر الفارابى وتوفى بعده بسنوات قليلة يذكر نبأ الوفاة وتاريخها دون أن يشير بحرف إلى قصة القتل. هذا إلى أن هذه الرواية لم يوردها مؤرخ آخر وإنما انفرد بها البيهقى ونقلها عنه الشهروزرى.

وفى تفاصيل رواية البيهقى ما يحيطها بالشكوك ويبعدها عن الصدق فنحن نعلم أن الفارابى كان زاهداً رقيق الحال ويأبى البيهقى إلا أن يجعله من أصحاب الدواب والأسلحة ولم تشفع لديه سنه المقدمة فجعله من رجالات الكر والفر.

على أن رواية البيهقى تتلاقى فى جملتها وتفصيلها مع المشهور عن قتل المتنبى شاعر سيف الدولة ويظهر أنها حملن على الفارابى فى القرن السادس

وليس هذا بغريب، إذ يظهر أن شخصية الفارابى كانت موضوعًا لخيال الكتاب حتى قال البـيهقى: أن بعض من لم يكن له معرفـة بالتواريخ "يحكى أن أبا نصر قد عراه الماليخوليا ومر على شط دجلة برجل يبيع التمر، فقال له: كيف تبيع التمر فـأجاب الرجل بكلام غير ملائم فضـربه وقال: أسألك عن الكيف وأنت تجيب عن الحكم.

ولسنا فى حـاجة إلى تفنيـد هذه الأسطورة فقد كـفانا البـيهـقى مؤونة ذلك.

* * *

obeikandl.com